"في التسليم للعترة الطاهرة"

المعادلةُ الجَمَاليّة في خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام حول مكارم الأخلاق

The Aesthetic Equation in The Sermon of Imam El- Hassan has peace about the decency of morality

د. فاطمة شيخو أحمد
Dr. Fatima Sheikho Ahmad

سوريا/ جامعة حلب، كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة، قسم اللغة العربيّة
Syria- University of Aleppo- Faculty of Arts and Humanities- Department of Arabic Language and Literature

Fa8288425@gmail. com

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحْث:

المعادلةُ الجماليّة ليست وليدة رؤيا نظريّة مستقلّة عن الواقع، وإنّما هي على اتّصال بالحياة المعيشة في كلّ أبعادها الإنسانيّة والأخلاقيّة والسّلوكيّة وتجلّيات الحُسن فيها، فهي مجموعة من الكلّيات المدرَكة، والقواعد العامّة التي تصوغ مجموعة القيم عند الإنسان في المجتمع، وتتحكّم بشكل لا إرادي بكلّ أنواع السّلوك لديه، إنّها معادلةٌ قلبيّة أو ذهنيّة في طبيعتها ترتكز على الغيب المتمثل بالقرآن الكريم وعند الرّسول صلى الله عليه وآله وعند أهل بيته(صلوات الله تعالى عليهم)، وهي ليست معادلة بصريّة أو ماديّة.

هذا ما يجعلنا نسعى في هذه الدراسة إلى عرض المعادلة الجماليّة عند الإمام الحَسَن عليه السلام والتعمّق فيها من خلال خطبته الشهيرة في مكارم الأخلاق، وقد ارتأينا استعمال مفردة (المعادلة) كي نوضّح العلاقة الجدليّة بين المعاني الجماليّة والأخلاقيّة، والتي تشكّل الجوهر الأساسي للدّين الإسلامي، وقد كانت هذه المعادلة راسخة وحاضرة في القرآن الكريم أوّلاً، وفي مقولات الرّسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ثانياً. وتعدّ خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام خير دليلٍ على احتواء المعاني الجماليّة المرتبطة بالأخلاق، من حيث إنّها ترمي إلى تلبية الحاجات المعرفيّة والرّوحيّة عند الإنسان للوصول إلى أعلى درجات السعادة، تلك الغاية التي يسعى إليها المسلمون في كلّ مكان وزمان.

الكلمات المفتاحيّة: الإمام الحَسَن عليه السلام، الجمالي، الحُسن، الفضائل الخُلُقيّة.

Abstract:

The aesthetic formula is not the result of a vision independent of reality. It is pertinent to living life in all its human، moral and behavioral dimensions and the manifestations of benevolence. It is an equivalent of heart or mind in nature based on the Prophet. It is not a visual or material formula that does not serve one's religion and religion.

That's why، in this study، it is present the aesthetic formulae at the benevolent front of the peace to deepen it through his famous sermon of morality. In order to clarify the dialectical relationship between the aesthetic and moral meanings that together constitute the basic essence of the Islamic religion. The formula is firmly established and present in the Glorious Quran first، in the words of the Prophet. The sermon of Imam Al-Hassan is the best sign of having the aesthetic meanings associated with morality، in it aims to meet the cognitive and spiritual needs of man to attain the highest standards of happiness Muslims seek everywhere and every time.

Keywords: Imam Al-Hassan , Aesthetic , Al-Hassan, Divine virtues

أوّلاً- المقدّمة:

لا تُخلق المعادلة الجماليّة فجأة، وإنّما هي حصيلة فكر جماليّ متين، والذي يكون مركّباً من أرقى أنواع الفكر الإنسانيّ وأشدّها تركيباً وتعقيداً، لأنّه يمثّل قمّة الخبرات الإنسانيّة وخلاصتها، وأكثرها قدرةً على فهم الكون والموجودات، وإظهار العلاقة بين الفرد والكون، فهو يقوم نتيجة علاقة متينة بين العقل الإنسانيّ والموضوع الجماليّ بكلّ أشكاله وتقسيماته في إطار الفكر الغيبيّ الذي يتمثّل فيما سمّيناه، بالمعادلة الجماليّة.

وقد اعتمد الرّسول صلى الله عليه وآله، ومن بعده أهل البيت عليهم السلام جميعاً على وحدة القرآن الكريم وقوّة حجاجه، إذ عملوا ما بوسعهم لتوجيه علومهم بما يتناسب مع مبادئ دينهم، ويحقّق مصالح الناس ومنفعتهم. وقد كان من أبرز هؤلاء الأئمة الإمام الحسن عليه السلام الذي يُشكّل الطابع الأخلاقيّ سمةً جوهريّةً في خطاباته، فنجد أنّ مفهوم الجمالي عنده مرتبط بمفهوم المفيد، والمفيد هو الخير، إذ لا فرق من أن يُقال: أخير في غاية كريمة، وبين أن يُقال: أخير وأحسن عامةً، فإنّ الأخير الأحسن هو على نحو مهمٍّ لغايةٍ ساميّةٍ، والأَخْيَر في غايةٍ ساميّةٍ هو الأحسن في تلك الغاية، بل إنّ صدور الأحكام الجماليّة إنّما يكون عن صاحب الوعي الأخلاقيّ، والفضائل الخلقيّة، فارتباط الحُسن بفضيلة الخير، هو أساس العلاقة بين المفيد والحَسَن في الأعمال، إذ إنّ اللذّة الجماليّة مفيدةٌ لأنّها تؤدّي إلى فضيلة الخير.

ثانياً- الخطبة المدروسة:

"اعْلَمُوا أَنَّ العَقْلَ حِرْزٌ، والحِلْمَ زِينَةٌ، والوفَاءَ مُرُوَّةٌ، والعَجَلَةَ سَفَهٌ، والسَّفَه ضَعْفٌ، ومُجَالَسَةَ أَهْلِ الدُّنْيَا شَيْنٌ، ومخَالَطةَ أَهْلِ الفُسُوقِ رِيبَةٌ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِإِخْوَانِهِ

فَسَدَتْ مُرُوءتُهُ، وَلَا يَهْلُك إلّا المُرتابُونَ، ويَنجُو المُهْتَدُونَ الَّذين لمْ يَتَّهِمُوا الله تعالى في آجَالِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولَا في أَرْزَاقِهِمْ، فَمُرُوَّتُهُمْ كَامِلَةٌ، وحَيَاؤهُمْ كَامِلٌ، يَصْبرُونَ حتَّى يأْتي لَهُمُ الله تعالى بِرِزْقٍ، ولا يَبيعُونَ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ وَمُرُوّاتِهِمْ بشْيءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ شَيْئَاً مِنْهَا بِمَعَاصِي الله تعالى، وَمِنْ عَقْلِ المَرْءِ وَمُرُوّتُهُ أَنْ يُسْرعَ إلى قَضَاء حَوائِجِ إِخوَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يُنزِلُوهَا بهِ، والعَقْلُ أفْضَلُ ما وهَبَهُ الله تعالى لِلعَبْدِ، إِذْ بِهِ نَجَاتُهُ في الدُّنيَا مِنْ آفاتِهَا وسَلَامتُهُ في الآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهَا. وَقِيلَ إنَّهُمْ وَصَفُوا رَجُلاً عِنْدَ رَسُولِ الله تعالى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم بِحُسْنِ عِبَادَتِهِ فَقَالَ: اُنْظُرُوا إلى عَقْلِهِ فَإِنَّمَا يُجْزى العِبَادُ يَوْم القيَامةِ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ وحُسْنُ الأَدبِ دَليلٌ عَلى صِحَّةِ العَقْل"[1]

ثالثاً – علاقة المفهوم الجماليّ بالأخلاق:

إذا كانت مسألة تحديد الجماليّ وماهيّته تختلف بحسب المعيار المعرفيّ الذي يقوم عليه، فإنّ الأمر الذي لا شك فيه عامّةً، هو أنّ الفعل الجماليّ الصادر عن القوى العقليّة، هو مجموعة نشاطات يقوم بها الإنسان، ويتميّز بها عن باقي المخلوقات، بوصفه كائناً اجتماعيّاً بالطبع، ولامتلاكه العقل الذي يستطيع من خلاله القيام بالأعمال. وهذا الفعل الجماليّ يمثّل قيمةً روحيّةً، في خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام، تتأسّس على الدّين، وهو يدفع المسلم إلى التّفاعل مع كلّ أشكال الحُسْن قولاً وفعلاً امتداداً من مجال العبادات إلى مجال الفكر والعمل، فالحاجة الجماليّة عند المسلم تُعدّ معيار قوة الإيمان السّارية في النّفس الإنسانيّة، والمتّصلة بخالقها، والتي تظهر في كلّ مجالات الحياة، وليس فقط في الأعمال وأنواعها، ولعلّ أكثر تجلّياتها هي في العادات، وأنواع السلوك، والعلاقة مع الآخر، والمجتمع والطبيعة، فالمسلم يشعر بالسّعادة واللذّة الجماليّة، لأنّ تمكين الله تعالى له ضروري لفعل الخير، وهو بذلك يكون موجوداً على

الحقّيقة، لأنّه تأمّل الجمال، وعَرَف كيف يضفي على ما حوله من موجودات معنى الجمال، ويوظّفه عمليّاً من أجل خدمة الإنسان.

وباستطاعتنا القول: إنّ مفهوم الجماليّ واحد عند الإمام الحسن عليه السلام، لأنّه يرتبط بمعيار واحد، وهو الرؤية الإسلاميّة التي تحيله إلى الله تعالى (الجمال المطلق) في صدوره عنه، إذ إنّ الجمال بحسب هذا الفكر ينقسم إلى قسمين: الأوّل مطلق، لا يخضع للزمان أو المكان، لأنّه أسمى من الوجود، وهو يتمثّل في الصفات الإلهيّة، "وهذا هو الجمال الإلهيّ جلّ عن تمثيلٍ، وتكييفٍ، وتشبيه، أو وصف حقيقةٍ، عجز الأولون والآخرون عن إدراك كنه ذاته، فلا يدركه غيره ولا يعلمه سواه، وإنّما حظّ الخلائق منه عجزهم عنه" (٢)

لذا لا نستطيع معرفته، إلّا من خلال القسم الثّاني، وهو الجمال المقيّد الذي يستمدّ نوره وجماله من النور الإلهيّ، إنّه مجلىً للواحد الأبديّ المطلق. وإذا كان الجمال المطلق أزليّاً واحداً فإنّ الثّاني المقيّد متعدّد، فهو يشمل جميع الموجودات التي تقع في الوجود الممكن، ويدور في فلك المطلق، لأنّه صدر عن هذا الوجود الواجب، ويرتبط به ارتباطاً وجوديّاً.

والسؤال الذي لابدّ من طرحه: ما علاقة الأخلاق بالمفهوم الجماليّ؟ هذه العلاقة تقوم على الوجود الإنسانيّ صاحب الأخلاق وصانع الجماليّ، فالذي يصنع ويبدع، وينسجم معه هو الإنسان، وهو ذاته الذي يتفكّر في صنائع الخالق، ويتفاعل معها بيسر وسهولة، وهذا كلّه يصدر عن معرفة ووعي يمكّنانه من إصلاح ذاته أوّلاً، ومساندة الآخرين ثانياً، كما أنّ الأوّل (الأخلاق) يمثّل القاعدة، والثّاني (الجماليّ) يمثّل قمّة هرم المواقف الإنسانيّة، الذي يُبنى تدريجيّاً، إذ يبدأ بالمواقف التي تتعلق

بالانفعال العامّ ويرتقي ويتطوّر حتى يصل إلى الموقف الجماليّ المصاحب بالتفكّر والتأمل، فهو يمثّل خلاصة تجربة المعرفة الإنسانيّة، وهو بذلك يكون مرافقاً للموقف الأخلاقيّ أو صادراً عنه.

يتدرّج الارتباط في الموقف الإنسانيّ بين الأخلاقيّ والجماليّ معاً بحسب نسبة المعرفة عند الإنسان من الإحساس إلى الإدراك، وهي متفاوتة بين الناس ومن فرد إلى آخر، بل وعند الفرد ذاته بحسب الزمان والمكان والخبرة والعلم، وهي ليست إلّا مظاهر متعدّدة ومتدرّجة للاجتماع بين الذّات العارفة وموضوع المعرفة الجماليّ، وهي لا تحصل عن عبث، بل هي تجربة تتمّ في منظومة معرفيّة متكاملة، وهي لذلك نتيجة للثقافة الاجتماعيّة التي يعيش فيها الفرد وينتمي إليها.

إنّ الجماليّ لم يأتِ منفصلاً عن الأخلاقيّ عند الإمام الحسن عليه السلام في كلّ أشكال السّلوك الإنسانيّ من قول وفعل وحركة، ولعلّنا إذا توغلنا في أصل هذه العلاقة، فإنّنا سنجد أنّ العقيدة الإسلاميّة بقسميها القرآن الكريم والأحاديث النبويّة هي المصدر الأساسيّ لهذه الثنائيّة، ولكلّ القيم الأخلاقيّة والجماليّة التي تهذب السّلوك الإنسانيّ وتوجّهه في أدقّ تفاصيل السلوك الإنسانيّ من قول وحركة وفعل وعمل.

وإذا ما بحثنا في القرآن الكريم فسنجد أنّ كلمة (الحُسْن) التي تتقدّم في الاستعمال على كلمة الجمال، تشمل المعنيين الخَلقي والخُلقي، وقد وردت هذه الكلمة باشتقاقاتها في (١٦٣) آية. وتقتضي خصوصيّة الآيات القرآنية أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام، بحسب مفهوم الحُسْن فيها: الأوّل يشير إلى الذّات الإلهيّة وصفاتها، والثّاني يُظهر النواحي المتنوّعة للعلاقة بين الإنسان والله تعالى، والثالث الذي يتكلّم على أسس السلوك وضوابطه، التي تعزّز التواصل الإنسانيّ بين الأفراد في المجتمع الإسلاميّ المحكوم بها.

وتتألّف المجموعة الأولى من أسماء الله تعالى وصفاته: مثل: قوله تعالى "وَتَمّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحُسْنَى. . "[٣]، "هُوَ الله تعالى الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الحُسْنَى. . "[٤]، "فَتبارَكَ الله تعالى أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"[٥]، "صِبْغَةَ الله تعالى وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله تعالى صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ"[٦]. هذه الآيات تصف تجلّيات الله تعالى في القرآن الكريم، وهي ذات طبيعة جماليّة تؤكّد قدسيّة هذا المفهوم.

وفي مقابل كلمة الحُسْن المرتبطة بالله تعالى، تعتني المجموعة الثّانية بالعلاقة الأخلاقيّة بين الله تعالى، الخالق، والإنسان. فالله تعالى، بحسب المنظور القرآني، هو مصدر الجمال والحُسْن، ويتعامل مع الإنسان بمحبّة وجمال، لذلك تحمل هذه المجموعة الدّلالة المهمّة، والمتمثلة في أنّ الإنسان أيضاً يُتوقّع أن يستجيب بطريقة أخلاقيّة وجمالية من خلال أدائه للفرائض والعبادات. ويتفرّع هذا القسم إلى اثنين: الأوّل يمثّل الآيات القرآنيّة التي تشير فيها كلمة الحُسْن إلى الحُسن الإلهيّ الذي يفيض من الله تعالى على الإنسان على مستويين الحُسن الخارجيّ أوّلاً، والمعاملة الأخلاقيّة ثانياً.

والدّليل على المستوى الأوّل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٧]، والدّليل على المستوى الثّاني قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[٨] أمّا القسم الثّاني، فإنّه يشمل الآيات التي تمثّل موقف الإنسان من الله تعالى، والتقرّب منه عن طريق حُسْن تأدية الواجبات، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ الله تعالى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[٩]، وقوله أيضاً (جلّ جلاله): ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله تعالى وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى الله تعالى عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[١٠].

أمّا المجموعة الثّالثة، فهي تنسب إلى الموقف الأخلاقيّ الأساسيّ للإنسان تجاه

الإنسان الذي يعيش في المجموعة نفسها أو غيرها، على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلّا الله تعالى وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ، إِلّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴾[11]، وقوله(جلّ جلاله) أيضاً: ﴿ وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا، أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ الله تعالى كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾[12] نرى في هذه الآيات الارتباط القويّ والمتجلّي في كلمة الحُسْن بين الجمال، وبين الفعل أو السلوك الإنسانيّ الذي يحكم الفرد وينظّم حياته بفضل سلسلة من القيم الأخلاقيّة التي استطاعت أن تضبط سلوكيّات المجتمعات الإسلاميّة.

ولابدّ من التذكير أنّ هذه المجموعات الثلاث لا يقف بعضها في أيّة حال بعيداً عن الآخر، بل هي شديدة الاتّصال فيما بينها لتشكّل كلّية واحدة وهي ما يمكن أن نسمّيه برؤيا العالم في جانبها الأخلاقيّ والجماليّ. وتنشأ هذه الرؤيا عن الحقيقة الأساسيّة المتمثّلة في أنّ نظرة القرآن إلى العالم مرتكزة إلى الله تعالى أساساً. فمفهوم الله تعالى هو الأصل، وكلّ جزئيّة في النظام الكونيّ لا تتحرّك إلا بعلم وأمر منه(جلّ جلاله)، ومن جانب آخر فإنّ هذا يعني أنّه لا توجد كلمة في القرآن الكريم بعيدة عن مفهوم الله تعالى، ومن ثمّ فإنّ مفهوم الحُسْن الإنسانيّ في القرآن ما هو إلا انعكاس للحُسن الصادر عن الذات الإلهيّة.

ولا ريب في أنّ خطاب سيدنا الإمام الحسن ﷺ يعدّ تأييداً للقرآن الكريم إذ يقود الإنسان إلى أصل الحُسْن المطلق، وهو الله تعالى سبحانه، وتدلّه على محبته وسُبل التقرّب منه. وقد وردت في خطبة الإمام الحَسَن ﷺ كلمة "الحُسن" للدّلالة على ما هو معنويّ غير محسوس ولا ماديّ، إنّه "حُسن الأدب" المتّصل بسموّ الخُلق، والعمل الذي يستمدّ وجوده من الله تعالى واجب الوجود. وهو موجود في كلّ ما خلقه الله تعالى

في الكون، فكلّ ما في الكون من مخلوقات، ينطق بقدرة الخالق وحُسْن صنائعه، وقد كرّم الإسلام الإنسان بأن هيّأ له كلّ الأسباب التي من شأنها أن تجعل منه إنساناً مُحسناً، ويحب المُحسنين، يقول الإمام الحَسَن عليه السلام: ". . **قِيلَ إِنَّهُمْ وَصَفُوا رَجُلاً عِنْدَ رَسُولِ الله تعالى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم بِحُسْنِ عِبَادَتِهِ فَقَالَ: انْظُرُوا إلى عَقْلِهِ فَإِنَّمَا يُجْزى العِبَادُ يَوْم القيَامةِ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ وحُسْنُ الأَدبِ دَليلٌ عَلى صِحَّةِ العَقْل**"(١٣).

يتّضح من خلال الاقتباس السّابق أنّ حُسْن الخُلق هو معيار للتقرّب من الرسول ونيل محبّته، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله يحب الأخلاق الحَسَنة، فمن الواجب على الإنسان أن يكرّس حبّه لله ولرسوله في أن يتحلّى بالأخلاق الحسنة ويلتزم بها عن وعي ومعرفة وفهم، ولهذا نجد أيضاً في كتب الحديث النبوي الشريف رصيداً كبيراً من الأحاديث التي تظهر فيها كلمة الحُسْن، وهي كلّها تنبّه على مكانة الحُسن في الحياة وأهمّيته، وتوضّح أثره في الإنسان، كما تقوّي الحسّ الجماليّ لديه، وتحرّضه على التفكّر به، ومراقبة آثاره، في كلّ ما يحيط به.

إنّ الاستعمال الأهمّ لمعنى الحُسْن هو في الأخلاق، وهو خاصّ بالإنسان تمييزاً له من باقي المخلوقات، فمن خلاله يصل إلى الكمال في الدنيا والآخرة، ولاشكّ في أنّ المحتوى الأخلاقيّ في الخطاب الدينيّ الإسلاميّ، سواء أكان في القرآن أم كان في الأحاديث الشريفة أم كان في خطب آل البيت عليهم السلام، يؤثّر تأثيراً كبيراً في سلوك المسلم وتصرفاته، وهذا التأثير مرتبط برؤيا العالم التي ترتكز على فكرة أنّ القيمة الجماليّة لا تشمل الجوانب العمليّة في حياة المسلم فقط، بل تشمل الحياة كلّها، ولاسيّما علاقات الناس الأخلاقيّة وتعاملهم فيما بينهم، وبذلك نجد أنّ خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام لا تقيم في محتواها فروقات جوهريّة بين الحُسن والأخلاق لأنها تؤكد على رسوخ القيم الخلقية جميعها.

وأيّاً يكن الأمر، فإنّ المفردات الأخلاقيّة لها دلالتها الخاصّة بها، فهي تشير إلى معانٍ ساميّة تُظهر القيم الإنسانيّة، وهذا الجانب يتميّز بخصوصيّة إسلاميّة، لأنّه أساسٌ لتنظيم السّلوك وترقيته الذي يقوم على نشر التسامح والمحبّة، وفعل الحسنات، واجتناب السيّئات.

ومن هنا نعتقد أنّ وحدة الحُسن والأخلاق هي الأساس والجوهر التربويّ والتهذيبيّ، وهما ضروريّان لتحقيق سعادة الإنسان، وتطوير المجتمع وتحقيق الانسجام والتّوازن فيه انطلاقاً مما ورد من آيات كريمة وأحاديث نبويّة، فهما يشكّلان معاً منظومة حياة توجّه الإنسان لفعل الفضائل، وتحقيق أرقى مرتبة من الكمال الإنسانيّ على مستويي العَرَض والجوهر.

ولاشكّ في أنّ الفكر المتجلّي في خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام على مستواه الجمالي هو فرع على الفكر الجماليّ العربيّ الإسلاميّ، والمُراد بالفكر الجماليّ هنا خُلاصة المعارف التي شكّلت الوعي الجماليّ عند الإمام الحَسَن عليه السلام، ومن أبرز سماته أنّه فكر عقلانيّ توحيديّ منبثق عن إحساس وإدراك جماليّ، منفتح الآفاق، كما تتوفر فيه الأسس الإسلاميّة، فهو مبنيّ على الفكر الإسلاميّ الذي يقوم على مبدأ التوحيد، فالله تعالى وحده هو المتّصف بصفات الكمال والجمال، وهو مصدر القيم الثلاث (الحقّ، والخير، والجمال).

كما أنّ استناد هذا الفكر إلى الحقّ المطلق (الله تعالى)، يجعله قريباً من الحقيقة، وبعيداً عن الخطأ، ولا ننسى قوّة حضور هذا الفكر في المجتمعات الإسلاميّة، لاستناده إلى الإيمان، حيث لا قوّة تضبط أهواء النّفس إلّا الإيمان وقوانين الشريعة المنبثقة عن كتاب الله تعالى، لذلك فإنّ صلاح دنيا المرء يؤدّي إلى صلاح آخرته، وصلاح آخرته مشروط بصلاح دنياه، وهذا يعني أنّ الإيمان بالآخرة يؤدّي إلى صلاح الدنيا.

من هنا كانت خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام مبنيّة على انسجام فكري، وهذا يمنحها حرّية التأمّل في تجلّيات الله تعالى على الأرض، وفي كلّ ما يصدر من مواقف جماليّة على مستويي التأمّل والتّفكير عند الإنسان. فالإدراك الجماليّ عنده مستند إلى التفكير، والتفكير آليّة عقليّة، ومن خلاله يكون فعل التذوق الجماليّ.

والحقّ أنّه لا يمكن أن يكون التفكير أو التأمّل العقليّان عند الإمام الحَسَن عليه السلام، -ولاسيّما إن كانا مرتبطين بالمعاني الجماليّة المتجلّية في الكون- رفاهيّة فكريّة، ولا هو بالممارسة النظريّة التي لا تمتّ بصلة إلى الواقع، إذ إنّ للفكر ممارساته التطبيقيّة، وفقاً لعلاقته الوثيقة بواقع الإنسان من حيث هو نتيجة لموقفه من مجتمعه وموروثه الثقافيّ، فهو بشكل عامّ المستوى الأعلى من الآراء والمبادئ والرؤى التي يمتلكها الإنسان خلال مدة زمنية معينة، ولأنّ مواقف الإنسان وأفعاله في أغلب الأحيان هي مجموعة ردود أفعال إزاء المجتمع، فإنّ فكر الإنسان هو كشف عن القيم والمفهومات والنظريّات السائدة في مجتمعه التي تبلور رؤيته تجاه الله تعالى والحياة والإنسان.

ثالثاً- الفضائل الحَسَنة:

نلاحظ من خلال قراءة الخطبة والتعمّق فيها حُرص الإمام الحَسَن عليه السلام على التذكير بالفضائل ذات الطابع العقلانيّ، مثل قوله: **"العَقْلَ حِرْزٌ، والعَقْلُ أَفْضَلُ ما وهَبَهُ الله تعالى لِلعَبْدِ، أُنْظُرُوا إلى عَقْلِهِ فَإِنَّمَا يُجْزى العِبَادُ يَوْم القيَامةِ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ"**(١٤)، أو ذات الطابع الإلهيّ، مثل قوله: **" يَصْبرُونَ حتَّى يأْتي لَهُمُ الله تعالى بِرِزْقٍ، ولا يَبيعُونَ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ وَمُرُوّاتِهِمْ بشْيءٍ مِنَ الدُّنْيَا"**(١٥)، وهذه الفضائل تتمثّل بالخير والحُسْن المطلق، لذا يجب أن تتعاضد هذه الفضائل معاً، ليقوم الإنسان بوظيفته على أكمل وجه، ولأنّ الإنسان كائن جماليّ يحمل الحُسْن في داخله، فعليه

الارتقاء بوجوده من خلال تمثيل الفضائل إلى مستويات السّلوك كلّها، وإن لم يفعل ذلك سينفصل عن الحياة، ولا تتأصّل ذاته، وإن لم يُعن بالاعتدال في سلوكياته ونشاطاته، فإنّ هذه الفضائل الكامنة في نفسه ستذبل، وتصبح عرضة للدخول في الذنوب والخطايا، وبذلك يتجه الإنسان نحو الضياع، فلا يترك أثراً حَسَناً في الحياة، لأنّه ابتعد عن ضوابط الحياة التي كان يجب أن ينظر فيها، ومهما يكن من أمر فإنّ الاقتباسين السابقين، ينسجمان في نسقهما الفني وبنائهما الفكري مع الخطبة كاملةً، ففيهما حركة ذهنيّة كبيرة عمادها الثنائيّات، والمفاجأة، والإدهاش، وهذه العناصر بنيت عليها الخطبة كلّها، من مبتدئها إلى منتهاها.

من أبرز الملاحظات الموجودة حول الجُمل المشكّلة لبنية الخطبة، أنّها مبنية في أساسها على القيم الجماليّة، من حُسْن، وجمال، وطمأنينة، وأُنس، ولُطْف، وجلال، وهي ضدّ النقائض: القبح، والنفور، والكراهيّة، والمعصية، فعلى سبيل المثال: المروءة هو ردع النّفس عن ارتكاب القبيح، فهو سلوك جميل في الأصل، لأنّه يحفظ قيمة الإنسان ذاتياً واجتماعياً. والحلم يعني شعور النّفس بالطمأنينة، واللطافة، وميلها القويّ إلى كلّ ما هو جميل. ويأتي بعده الصبر، وهو مرحلة صعبة مثل سابقه، فهو القدرة على ضبط النفس وتوجيهها نحو فعل الجميل. والحياء هو ضبط النّفس ومنعها من فعل القبيح. ويعني حُسن العبادة ضبط النّفس من فعل الذّنوب، واللجوء إلى تقديم الصّلاح والخير. ويرتبط كلّ من صحة العقل وحُسْن الأدب، بالقوى الداخليّة لدى المرء، إنّه ميل النّفس للاتّساق والاعتناء بحُسْن خُلُقه، وتآلف بين الروح والجسم، أي الظاهر والباطن. أمّا الوفاء والورع، فهما يختصّان بالحُسْن الداخليّ، ورزانة النّفس وتعقّلها، والتمسّك بالأعمال الحَسَنة ولزومها، ويبدو من خلال سكينة الرّوح الظاهرة على ملامح الهيئة.

وتكشف التفصيلات السّابقة في معاني الفضائل مراعاة الإمام الحَسَن عليه السلام للمستويين الزمانيّ والمكانيّ، فهذه الفضائل ليست خاصّة بجماعة محدّدة أو زمان محدّد، إنّها إنسانيّة مبنيّة على أسس معرفيّة، فهي مفتوحة على كلّ الأزمنة والأمكنة، وهي وإن كانت ترتبط بقوى النّفس الداخليّة، فإنها تُعنى بالهيأة الخارجية العامّة للإنسان، وتتمثّل في السّلوك الإنسانيّ، مثل الابتعاد عن العجلة، وحُسْن الأدب. . أضف إلى ما سبق، أنّ الفضائل الناتجة عن حكمة العقل لا تلغي الانفعالات عامّة، بل تضبطها وتجعلها في حالة توازن، لذلك فهي حَسَنة من جهة الاعتدال، فضلاً عن أن استعمالها في الوقت والمكان المناسبين يخلق الفعل الجميل. وفي هذا يقول الإمام الحَسَن عليه السلام: **"والعَقْلُ أَفْضَلُ ما وهَبَهُ الله تعالى لِلعَبْدِ، إِذْ بِهِ نَجَاتُهُ في الدُّنيَا مِنْ آفاتِهَا وسَلَامتُهُ في الآخِرَةِ مِنْ عَذَابِهَا"**[١٦] وهنا يتّضح تفرّد كلام الإمام عليه السلام وخصوصيّته بوصفه انطلاقاً من أداة العقل لاكتشاف الوجود وما ورائه، ومن الضّيق إلى الانفراج، وهو تعبيرٌ عن رؤية حكيمة خاصّة، وقد صاغها الإمام عليه السلام بصورة مباشرة من خلال التّواصل المنطقي مع الإنسان، يخاطب فيه عقله، وفي هذا الموقف قدر كبير من السمو والرقي، ولم يكن البناء الفنّيّ أدنى من ذلك القدر الرّفيع، بل كان بناءً متميّزاً بالاتّساق مع طبيعة الرؤية تجاه الإنسان والموقف منه، وكان فيه قدر كبير أيضاً من الإفهام والوضوح، ممّا يمنح الكلام قراءات متجدّدة. أمّا عن علاقة الفضائل بالرّوح، فإنّ هذه الفضائل هي حسنة من جهة أنّها مستمدّة وجودها من القوّة الروحيّة الكامنة في الإنسان، فالفضائل تشرف بشرف الأصل الصّادرة عنه، وتكمل بكماله، وترتقي عندما تتحوّل إلى أفعال وسلوكيّات في الحياة.

والفضائل جميعها مركبّة في تكوينها، وهي التي تجعل الإنسان لا يسلك سلوكاً واحداً في مراحل حياته المختلفة، إذ ليس من اليسير اتّخاذ سلوك إنساني حَسَن في

مواقف الحياة كلّها، لأنّه فعل ناتجٌ عن جملة أمور متداخل بعضها ببعض بين داخليّة وخارجيّة، ونفسيّة وجسميّة وعقليّة.

إذاً: ما الفائدة من رصد هذه الفضائل، وضبطها، وتصنيفها، والتركيز عليها؟

إنّ معرفة هذه الفضائل هو سبيل الاتصال بالآخرين وفهمهم، وهو ما يساعد على تحسين أفعالنا وتصرفاتنا، وتحقيق الانسجام عند الفرد، ومساعدته على تحصيل السّعادة في الدّارين، وإذا ما طبُقت الفضيلة سلوكيّاً على الدوام، فإنّها تصبح هيئة ملابسة للنفس، لا تنفصل عنها أبداً، مما يؤدّي إلى تطوّر أنواع السّلوك والرقيّ بجمالهم في كثير من نواحي حياتنا.

رابعاً- سُبُل اكتساب السّلوك الحَسَن:

وإذا كانت الفضائل الأخلاقيّة مهمّة في وجودنا من حيث ضبط تصرفاتنا وتحسين حياتنا، فما السُبل التي تخرج هذه الفضائل من وجودها النظريّ إلى حيّز التطبيق العمليّ؟ وذلك ما أشار إليه الإمام الحَسَن ﷺ ضمنيّاً إذ يمكننا وضعها في ثلاثة قوانين أساسيّة من أجل تحقيق السّلوك الحَسَن عند الإنسان عامّةً، وهي:

أ- الشّريعة:

الشّريعة هي: "ما سَنَّ الله تعالى من الدِّينِ وأَمَرَ بِهِ"(١٧)، أي ممارسة كلّ الأفعال الحَسَنة التي سنّ الله تعالى، والنّهي عن المكروهات والمحرّمات القبيحة، لتحقيق السّعادة والانسجام الاجتماعيّ، وفي المقابل إنّ كلّ سلوك ينحو تجاه الشر والقُبح، وجلب الأذى للنفس والآخر، فإنّه يبتعد عن المنطق العقلانيّ السليم، ويبعد الإنسان عن ربه، من هنا نقول: إنّ كلّ سلوك يقوم به الإنسان خارجاً عن مبادئ الشّريعة وتقاليدها يكون أداة طيّعة في يد الآخرين، لأنّه لا يملك معياراً يحتكم

إليه، ولذلك سيكون عرضة للتأثّر بكلّ الأفكار التي تحيط به سواء أكانت سلبية أم كانت إيجابية، قبيحة أم حَسَنة، وستتحول مكانته من عبادة الله تعالى إلى تبعية البشر وأفكارهم أفراداً كانوا أم جماعات.

أوّل ما يحتاج إليه الإنسان عندما يُولد هو تلبية حاجات رغباته الغريزيّة من الطعام والشراب، فضلاً عن أنّه لا يملك القدرة على تمييز الأفعال، وفهم الأشياء من حوله وإدراكها، لذا فهو يرث أحكام الشّريعة عن الأبوين من خلال التّربية، فالتّربية هي المرحلة الأولى التي تترتّب عليها أصول العلوم والمعارف المختلفة التي سيكتسبها لاحقاً، وتوجّه الإنسان في مواقفه وأنواع السّلوك كلّها، إنّها القاعدة الأساسيّة التي لا ينمو غرس الوجود الإنساني إلا في تربتها، والحاجة إليها حاجة وجوديّة مبنيّة على منفعة الإنسان وتلبية مصالحه، فهي نظام يرشد الإنسان بتعليماتها نحو كلّ فعل ينفعه ويحسّن وجوده في الدّنيا والآخرة.

يشير الإمام الحَسَن عليه السلام إلى كثير من ضرورة التزام الإنسان بأوامر الشّرع من خلال قوله: **"ويَنجُو المُهْتَدُونَ الَّذين لمْ يَتَّهِمُوا الله تعالى في آجَالِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولَا في أَرْزَاقِهِمْ، فَمُرُوَّتُهُمْ كَامِلَةٌ، وحَيَاؤُهُمْ كَامِلٌ، يَصْبرُونَ حتَّى يأْتي لَهُمُ الله تعالى بِرِزْقٍ، ولا يَبيعُونَ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ وَمُرُوّاتِهِمْ بشْيءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ شَيْئاً مِنْهَا بِمَعَاصِي الله تعالى"** [١٨] وهذا الموقف من الأخلاق النبيلة يعني الحرص الأشد على الجمال، والخشية من تغيّره، والطموح إلى بقائه خالداً، وهذا كلّه يؤكّد عدم وقوف الإمام الحسن عليه السلام عند الظّاهر، وعدم الاكتفاء به، كما يؤكّد التطلّع إلى ما وراء القيم وصولًا إلى معانقة الجمال الكلّيّ المطلق.

إنّ إدراك الإنسان لفكرة الشّريعة وأصولها لا تكون نتيجة اكتسابها من الأبوين،

وإنّما تبدأ عند سعي الإنسان إلى معرفة الكون من حوله، والتعرّف على هويّة الأشياء، وطرح تساؤلات عن أسباب الانتظام والدقّة التي تحكم الكون عامّةً والعلاقات البشريّة خاصّةً، فيعمل على تعلّم كلّ المبادئ التي تدفعه إلى فعل الخير وتحقيق الجمال في كلّ ما حوله بفضل القدرات والإمكانات التي زوّدها الله تعالى به، أي أنّها مرحلة لاحقة بمرحلة نشوء الأحداث وتربيتهم.

وتأتي أهمية الشّريعة من أنّ مصدرها إلهيّ، فضلاً عن أنّها تتضمن الخلاصة التي تحاول كتب الحكمة والمعرفة والآداب الإتيان بها، أي توجيه الإنسان نحو السّلوك الأحسن كي يحيا في سعادة دائمة، فهي تفوق كلّ كتب الفلاسفة والحكماء؛ لأنّها تمنح الإنسان أسباب الرضا والطمأنينة، وتحثّه على ضرورة تحقيق كلّ سننها، لما تتركه من تأثير قويّ في مشاعره وفكره وروحه، بالإضافة إلى أنّها تخدم وجوده ببعديه الماديّ والروحيّ، ويكون ذلك إيذاناً لأنّ يتحمّل الإنسان المسؤوليّة، ويراقب كلّ تصرفاته وأفعاله مع نفسه والآخرين، وفي ضوء هذا يستطيع أن يرسم الحدود الفاصلة بين الحَسَن والقبيح في حياته ممّا يكون قد تنبّه إليه من قبل، إلا أنّه لم يفكّر في التفريق بينهما، فتأتي الشّريعة لتكون ضابطة للحرية الإنسانيّة المطلقة من خلال جعلها منتظمة ومعتدلة وغائية.

ويشير الإمام الحَسَن عليه السلام أيضاً، إلى مسألة مهمّة وهي ضرورة تعويد الإنسان نفسه على المروءة والحياء [١٩]، فإن كانت نفس المرء تميل إلى الحياء، أي إنّ الحياء طبع أساسي عنده، فهذا دليلٌ على تمكّنه من إحساسه بالجمال ونفوره من القبح، وعندها تكون نفسه مستعدّة لتلقّي أصول الشّريعة وتطبيقها على أفضل حال، أمّا إذا كان العكس من ذلك، فإنّ الشّريعة ستعمل على تلطيف طباعه وتأديّبها، ليكون قادراً على التفاعل مع الوسط الاجتماعيّ المحيط به، وحُسن الانسجام معه.

إنّ تنفيذ تعليمات الشّريعة لا تكون على النحو الأفضل إلا عندما يدرك الإنسان طباعه المتأصّلة في نفسه، ويعرف الفضائل الصّادرة عن قواه الداخليّة وحُسْن انسجامها واعتدالها، عندها يستطيع أن يحوّل تلك التعليمات إلى سلوك عمليّ في كلّ مراحل حياته، فالفضائل بحاجة ملحّة إلى قواعد شرعيّة في شخصيّة الإنسان سواء أكان حكيماً أم كانعادياً، وكلّما تعمّق فهم الإنسان للمبادئ الشّرعية، كان سلوكه أجمل مع نفسه وغيره.

ب- **التّربية:**

لا أحد ينكر أنّ التّربية عمليّة واعية ومستمرّة في حياة الإنسان، وهي من أهم العوامل في تطوير السّلوك الإنسانيّ، وتغييره إلى الأحسن بحسب السّياقات الاجتماعيّة والثقافيّة التي ينتمي إليها الأهل، وقد أكّد الإمام الحَسَن عليه السلام هذه المسألة، وبيّن أنّ عمليّة التّربية لا تقوم إلا بين طرفين: المعلّم والمتعلّم، ومعرفة كلّ منهما واجباته نحو الآخر. وثمّة علاقة وشيجة بينهما، يصعب فكّها، لأنّهما يُشكّلان طرفي العمليّة التربويّة، وإذا كانت مهمّة المربّي تهذيب سلوك المتعلّم وإصلاح أخطائه، ومكافأته على كلّ ما هو جميل، فإنّ هذا يقتضي من المتعلّم مهمّة احترام المربّي ومحبّته وإجلاله كي لا يقع في شرك القبائح، ويدرك معنى الانضباط بقواعد الشّريعة، فضلاً عن التحكّم بالنّفس كي لا تنقاد إلى سفائف الأمور، ممّا يجعله أكثر فهماً لأسباب وجوده في الحياة، ومعرفة الحُسْن الكامن في داخله.

ويظهر الجانب العمليّ في خطبة الإمام الحَسَن عليه السلام جليّاً باهتمامه بموضوع الابتعاد عن السّفهاء وأهل الفسوق وعدم مخالطتهم، لأنّ " **والسَّفَه ضَعْفٌ، ومُجَالَسَةَ أَهْلِ الدُّنْيَا شَيْنٌ، ومخَالَطَةَ أَهْلِ الفُسُوقِ رِيبَةٌ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِإِخْوَانِهِ فَسَدَتْ مُرُوءتُهُ،**

وَلَا يَهْلُك إلّا المُرتابُونَ"[٢٠] والاقتباس هنا يمتاز بالتكثيف الشّديد، ولا شيء من التطويل فيه أو الإسهاب، ولا شيء من الاستغراق في الوصف، وبذلك تنسجم مفردات الإمام الحسن ﷺ من صورة وأسلوب ولغة ورؤيا لتشكّل موقفاً من الحياة يقوم على السعي من رؤيا الجمال العابر والمحدود إلى الجمال المطلق الأبدي.

وهنا لابدّ من القول إنّ مسألة التّربية مهمّة منذ الصغر كي يستطيع المرء لاحقاً بعد نضجه من تمييز أهل الفسق من أهل الصّلاح، إذ إنّ الإنسان في صغره يتميّز بذهن صافٍ لمّا يتأثر بأفكار وعادات وميول المجتمع من حوله كما أنّ أخلاقه تُكشف من خلال سلوكه الفطري الذي لا يعمد غالباً إلى الكذب أو التحايل أو إخفاء القبيح، مما يسهّل تلقّيه أساليب التهذيب، والسّلوك الحَسَن، والالتزام بقواعد الشّريعة، إلّا أنّ ثمّة تفاوتًا في طباع البشر منذ الصغر بين خيّر، وشرير، وسهل سلس، وفظّ عسير، ممّا يجعل تأثير التّربية متفاوتاً في تنوّع السّلوك بين الحُسن والقُبح، والخير والشّر، وهذا لا يلغي قيمة التّربية التي يبقى أثرها حاضراً في حياة الإنسان، ويظهر في نضج أفكاره وأفعاله.

ج- المعارف المتنوّعة:

تأتي المعارف المتنوّعة في المرتبة الثالثة من قوانين اكتساب السّلوك الحَسَن، فإذا توفر شرطا التزام سنن الشّريعة والتّربية السليمة جاءت المعارف إغناء لتجربة الإنسان عامّة، وضامنة لاختياره السلوك القويم والحَسَن بناء على طبع الإنسان واستعداده.

ولأنّ الإنسان يمتلك في داخله الميل إلى المعرفة من جهة الرّوح، فسيسعى إلى البحث عنها على الدوام، إلّا إذا شغله شاغل، ولهذا فقد تبيّن لنا من خلال التعمّق في خطبة الإمام الحَسَن ﷺ أهمّية اطّلاع الإنسان على كتب الأخلاق أوّلاً ليكتشف

وجود أشكال الحُسْن في داخله، ومن ثمّ ينتقل بعد التأكّد إلى كتب الحساب والهندسة حتّى يتعوّد الصدق في القول، والمنطقية في التفكير، فيكون ملازماً لهذه الصّفات على الدوام، وبعد ذلك فإنّه يتدرّج إلى العلوم الأكثر تجريداً، كالفلسفة ليصل بعد تعلّمها إلى أعلى درجات السّعادة المنشودة، لأنّها سبيله إلى الحكمة الخالدة المجرّدة عن الأمور الحسّية.

ويتبيّن لنا من خلال التركيز الشّامل للإمام الحَسَن عليه السلام في خطبته على الفضائل الخُلُقيّة [٢١] ضرورة تلقّي الإنسان المعارف من كتب الأخلاق أوّلاً، من أنّه لا يمكن التخلّي عن إرشادات السّلوك، وقواعد الفضائل والالتزام بها في كلّ الأزمنة والأمكنة، فضلاً عن أنّها ضروريّة للصغير والكبير، ذكراً كان أم أنثى، وفي كلّ المعاملات والمواقف الإنسانيّة، ويأتي بعدها العلوم الرياضيّة، لتعلّم الإنسان أسس المنطق العقلانيّ الصحيح، والتفريق بين الصواب والخطأ، والابتعاد عن الشطحات الخياليّة. وذلك كلّه بجمل موجزة ومكثّفة وبلمساتٍ بلاغيّة رشيقة تمتاز بالموضوعيّة والحسّ الجمالي المحض.

إنّ هذه المعارف لن تتحوّل إلى سلوك عمليّ إذا عاش الإنسان وحده أو انفرد في صومعة خاصّة به، فليس وجود الإنسان وجود انعزال وانطوائيّة، بل هو اجتماعٌ وعطاء يحقق من خلاله معنى التكليف الذي كلّفه الله تعالى به في نشر الحقّ والخير والجمال بين الناس وإعمار الأرض، وهو ما يستدعي تغيير نفسه أوّلاً، ومساعدة من حوله ثانياً بالمعرفة التي اكتسبها للسّموّ بهم في كلّ المجالات بما يتّفق مع القانون الإلهيّ.

خامساً- الخاتمة:

لقد ابتعد الإمام الحسن عليه السلام عن المعاني والألفاظ المكرّرة، وعبّر عن معاني واسعة في امتداداتها البلاغيّة والمعرفيّة والأخلاقيّة والجماليّة، ويمكننا استخلاص ما يلي:

- تتجلّى المعادلة الجماليّة عند الإمام الحَسَن عليه السلام في العلاقة المتينة بين معنى الحُسن والفضيلة، لتكون نتيجة هذه المعادلة الفضائل الحَسَنة التي تتمثّل في الفعل الإنسانيّ الساعي إلى الكمال الذي وُجد من أجله تحقيقاً لسعادته، ويعد رأس هذه الفضائل الخير وحُسن الأدب، وهما يتحقّقان بأداء الإنسان الوظيفة التي كلّفه الله بها، وبحسب ذلك يكون كماله، فالخير وحُسن الأدب يرتبطان كلاهما بالوظيفة، إلّا أنّ حُسن الأدب هو السّابق، والخير هو اللاحق، كما أنّه يكون فعليّاً وعمليّاً بآثاره، وكلّما أدّى الإنسان وظيفته على أفضل وجه ارتقى في درجات حُسن الأدب الخاصّ به، وهذه الرؤية الحاضرة في الخطبة هي جزء من الرؤيا العامّة للحضارة العربيّة الإسلاميّة التي تنفي العبثيّة في حياة المسلم، إذ يُقاس حُسن وجود الكائنات الحيّة والجامدة في الوجود بمدى تحقيقها لوظيفتها في الحرص على الخيرات، وتجنّب الشهوات.

- إنّ الوجود العشوائيّ المضطّرب سيكون مدمّراً للحياة، لذا فقد شدّد خطاب الإمام الحسن عليه السلام على العناية بالإنسان وفضائله الأخلاقيّة وتحديد وظائفه وتوضيح غاياته.

- إنّ نظرة الإمام الحسن عليه السلام إلى الفضائل الحَسَنة إنّما هي لأجلّ الغاية منه، ومحبّة الفائدة التي يحتويها فعل الخير للنفس وللآخرين، وهي لا تقتصر على السّعادة الدنيويّة فحسب، بل تتجاوزها لبلوغ السّعادة الأبديّة في الآخرة، حيث مآل الخيرات الإلهيّة السرمديّة.

هوامش البحث:

١.الديلمي. الحسن بن محمّد. إرشاد القلوب، ص٢٣٩، وقد ورد عند الصّافي. عبد الرّضا: بلاغة الإمام الحسن عليه السلام(خطب، كتب، كلمات).

٢.ابن الدّباغ (عبد الرحمن بن محمد الأنصاري): مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، ص٤٢

٣.الأعراف: الآية ١٣٧

٤. الحشر: الآية ٢٤

٥. المؤمنون: الآية ١٤

٦. البقرة: الآية ١٣٨

٧.التين: الآية٤

٨. يوسف: الآية ٢٣

٩. النساء١٢٥

١٠. لقمان٢٢

١١. البقرة٨

١٢. النساء٨٦

١٣.الديلمي. الحسن بن محمّد. إرشاد القلوب، ص٢٣٩، وقد ورد عند الصّافي. عبد الرّضا: بلاغة الإمام الحسن عليه السلام(خطب، كتب، كلمات).

١٤.المصدر السابق

١٥.المصدر السابق

١٦.المصدر السابق

١٧.ابن منظور: لسان العرب، باب الشين، مج: الرابع، ص٢٢٣٨

١٨.الديلمي. الحسن بن محمّد. إرشاد القلوب، ص٢٣٩، وقد ورد عند الصّافي. عبد الرّضا: بلاغة الإمام الحسن عليه السلام(خطب، كتب، كلمات).

١٩.يُنظر: المصدر السابق

٢٠.المصدر السابق

٢١.يُنظر: المصدر السابق

٢٢. الكهف: الآية ٥٤

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١.ابن الدّباغ، (عبد الرحمن بن محمد الأنصاري). ١٩٥٩م. مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب: تح: هـ. ريتر. بيروت. دار صادر.

٢.الصّافي، عبد الرّضا. ١٤٣٥م. بلاغة الإمام الحسن عليه السلام (خطب، كتب، كلمات): تصحيح وفهرسة: جعفر عبّاس الجابري. ط٤. المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

٣.ابن منظور. د. ت. لسان العرب: تح: عبد الله عليّ الكبير. ومحمد أحمد حسب الله. وهاشم محمد الشاذلي. القاهرة. دار المعارف.